نظرة
للثقافة و الإعلام
زفرات
الفيافي
عبد اللطيف الحاجي
2020

زفرات الغيافي

عبد اللطيف الحاجي

إهداء

إلى من لفظتني بعد طول تعب...أمي الحبيبة
إلى ملهمتي..النخلة الأبية

زفرات

ذكرى أليمة

على رصيف المدينة الملوثة بالضجيج والدخان

التفتت النخلة نحو زميلة كانت تقف بالقرب منها قائلة:

آه ياصديقتي كم كنا مخطئين حينما اعتقدنا بخلاصنا من تسلق الصحراوي إيانا وقطعه لتمرنا و"جريدنا"

ألا ترين يازميلتي سوء الحال الذي صار إليه مآلنا.

أين التمر الذي يكلل وجودنا ويحفظ بقاءنا؟

أين الهدوء الذي يحيط فضاءنا والطيور التي تشدو لنا؟

لم تجبها زميلتها لكنها تأوهت وهي تستعيد ملامح ذكرى أليمة..

نظرة فزواج

نظرت إليها فبادلتني بأخرى..دون أن أغفل قول الشاعر ابتسمت لها فابتسمت هي الأخرى..ظننت أن الطريق إليها أصبح هو الكلام فقط فعبرته.

وجدتني بعد سنوات من دراسة الشعر في غرفة صغيرة عاطلا عن العمل وزوجة لا تمل من الكلام.

انتظار

منقادون برغبة كامنة داخل الإنسان..هاجر كل رجال القرية نحو المدينة.
(الهجرة واحدة من الماهيات الأساسية التي تكسب الإنسان جوهره وكينونته)
وبرغبة في نفوس اللئام..تزوجوا هناك وأنجبوا أطفالا.
تلقووا تربية عصرية في مدارس المدينة وسايرهم أباءهم في المسار..لا يعرفون النخلة التي كانت الأم المعطاء لأبائهم.
فيما النساء في القرية لا زلن يحتفظن بالتمر في الخوابي منتظرات عودة أزواجهن.

الإنتخابات

لا أحد يميز هذه الأيام فيما إذا كان الجو غائما أم قاتما..لكن موجة من الزكام جرفت كل الأشياء المتداعية.
يقال بأن الديمقراطية كانت من المصابين وأنها عطست فيروسا انتشر كالوباء، أطلق عليه فيروس الN.T اختصارا.

هجرة

في الصحراء القاحلة وتحت أشعة الشمس الحارقة.
انتبهت كثبان الرمل فلم تجد أثرا لبشر على أرضها.
حملت أمتعتها هي الأخرى وهاجرت نحو المدينة.

إغراء

فجأة غلقت كل الأبواب والمنافذ

وقالت:لك أن تستبيح كل مكامني

لم أكن يوسفا ولم أشأ أن أكونه

فامرأة العزيز كانت أكثر إغراء

البيوض

دعت حكيمة النخل لقمة طارئة على إثر غزو البيوض لأجسامها وإنهاكه لقوتها.

بعد طرحها للقضية ساد القاعة صخب وضجيج..

أصوات تتساءل وأخرى تحتج و...

عاد الهدوء مرة ثانية بتوجيه من الحكيمة التي قالت:

"بعد الدراسة العميقة والتمحيص الكافي ارتأينا أن لا حل لهذا غير الهجرة نحو المدينة"

صمت

قال البعض بأنهم هاجروا دون عودة

والبعض الآخر قال بأنهم نزحوا نحو المدينة وسيعودون متى تهيأت الظروف

وحدها الأرض لم تقل شيئا..ظلت صامتة إلى الأبد

زحف

كان الزحف في أوجه نحو المدينة.

زحف الرمال المهاجرة زرافات وأفرادا..

المدينة تختنق..

تختنق المدينة والأصوات تتعالى بالاستنكار

في البرلمان انقسمت الآراء داخل الحزب الواحد.

مناطق الزحف تعطي مشروعية لزحفها..ومناطق الاستقطاب تستنكر بأعلى صوتها..

في منتصف الطريق كانت زُرَافات الرمل المتأخرة قد سمعت بالخبر فانبطحت في مكانها.

سوء تفاهم

بعد تردد كبير استجمع مشاعره وقال لها:

-ألا تعلمين يا...بأني أحبك؟

-منذ متى؟

-منذ أن رأت عيناي عينيك وخفق قلبي لرؤياك

-أنا لا أحبك

-ولكنني أحبك بجنون مطلق

-أنا لا أحبك بتاتا

-إذن ماذا؟

-ذاك شأنك

-سأنتحر؟

-لا يهمني تلك حياتك افعل ما تشاء

بعد أيام وصلها خبر انتحاره وقتذاك فقط أحست بأنها كانت تحبه.

الجبار

رأيته في منامي..بدا لي وجهه معتادا..كان قابعا في كرسي في ركن قصي من الغرفة.

قال لي شامتا:"عدت مرة ثانية؟ألم أقل لك إنك ستعود صاغرا ووجهك للأرض؟"

كان الملعون يتحدث بسخرية بادية على محياه الخشن.

قلت له دون أن أرفع بصري عن لوحة زيتية لرجل مفتول الساعدين حاد النظرة،يبدو من تقاسيم وجهه أنه جبار عنيد:"نعم عدت..لقد عدت هذه المرة لأنتقم"

انفجر صوت قهقهات دوى لها المكان،وقال في استهزاء ظاهر:"تنتقم..من؟أنت؟..تنتقم ممن أيها ال...أيها الجبان" سأنتقم لنفسي منك ..سأنتقم للعالم كله..سأنتقم..سأنتقم..أنا شحرور خلقت حرا وسأظل كذلك..أنا لن أرضى بأن تدوس كرامتي وتسلبني حريتي وأقف متفرجا مقيدا بأغلال الحاجة إليك..أفضل الموت على الاشتغال عند أمثالك أيها المتعجرف الجبار.

"لقد استحملتك فوق ما أطيق..هل ستعود إلى عملك أم تنتظر حتى أطردك " وأشاح عني بوجهه.

سأعود..نعم سأعود..لكن لا تنسى أنني سأنتقم يوما..لابد أن أنتقم لحريتي وكرامتي..اجعل هذا في حسابك..لابد أن أنتقم..العالم كله سينتقم.

غرق

حاولت أن أجتنب الوقوع في البحر،لكن عبثا ذهبت المحاولة،فالبحر قد امتد إلى دواخلي ،أغرقني في قراراته،وضمتني إليها أمواجه،نسيت تحذيرات صديقي الحميم أو بالأحرى تناسيتها،ماء البحر مالح؛هكذا سمعتهم يقولون،لكنني وجدت عكس ما يقولون،فهو عذب زلال،بدأت أشرب وأشرب لأشبع ذاتي ،وأخيرا أفرغت ذاتي في ذاته وأصبحنا جسدا واحدا

ندم

شاعر أحب شاعرة فتزوجا

أنجبا قصيدة من الندم والألم

تقمص

تقمص روح شاعر حين قال لها:أحبك

تقمصت روح فيلسوف وقالت له:وما الحب؟

قال:هو شعور نبيل يتقمص روحا إلهية قوية

قالت:أنا بسيطة أريد حبا بسيطا يتقمص روحي الضعيفة ويقويها.

مذكرات حبة رمل

-هب نسيم رياح جنوبية فلفح وجهي المدثر بحرارة الشمس القائظة

استيقظت من نوم خلت أنه كان خفيفا لولا أنني تنبهت إلى رحيل زميلات كن بقربي قبل قليل وبعض خيام كانت على مرمى البصر

في البداية لم أحفل للأمر غير أن السكون الذي غمر وحدتي بعث في نفسي وحشة أشبه بالحنين إلى رفيق يملأ هذا الفراغ -في غمار وحدتي..فكرت في الاتجاه الذي قد تكون سلكته زميلاتي

ربما قد ذهبن لتفقد المكان الذي نزلنا فيه من مدة بعيدة دون أن نعلم شيئا عن جوانبه؟أو ربما تهن في هذه الصحراء الموحشة؟..أسئلة راودتني فلما لم أجد لها جوابا قررت أن أقتفي الأثار عساها تهديني المسار.

-تذكرت...إنهن في الأيام الأخيرة أصبحن يتحدثن كثيرا عن الهجرة إلى ما وراء هذه الصحراء الشاسعة..سمعن من بعض الزميلات اللواتي حملتهن الرياح إلينا أن وراء هذا الأفق توجد دنيا ساحرة..فامتلأت نفوسهن بحلم كنت أستبعد تحقيقه.

-هل هاجرن دون أن يستخبرنني إن كنت سأرافقهن أم لا ؟ربما أيقظنني فلما لم يفلحن في ذلك ذهبن وتركنني؟ماذا سأفعل الآن؟ ما العمل؟..لست أدري؟لست أدري

- أمام هذا التدفق الجارف للأسئلة الحارقة..قررت أن أسلم نفسي إلى رياح تحملني نحو وجهة مجهولة.

بوح

في لحظة وجيزة بحت لها بكل أسراري
وفي لحظة أوجز نسيتها وتعلقت بحبي

لقاء الفناء

فاضت قطرة ماء من بحر المحيط فشقت طريقها نحو الصحراء.
في منتصف الطريق صادفت آخر حبة رمل قادمة من الصحراء.
تعانقتا وكانت تلك آخر رحلة نحو الفناء.

افعل ما تؤمر

قال الوالد لابنه الذي كان نبيها وذكيا:"يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى"
نباهة الابن تقتضي أن يتم الآية ليعبر لوالده أنه يحفظها فقال:"يا آبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين"
ففعل الأب ما أومر..فلم يستفق إلا والعشرين سنة سجنا قد أنزلت باسم القاضي من هيئة العدالة العادلة الموقرة.

درس في الجغرافيا

في درس الجغرافيا سألهم الأستاذ عن أطول نهر في المغرب.

صمتوا..لا عاجزين عن الجواب ولكن مصغين لصوت منبعث من الجنوب:

"استحال أطول نهر إلى نعش تتمدد فوقه جثث تلاميذ ينتظرون تغير مناهج تدريس الجغرافيا."

سائح أجنبي

كان يبحث في كل مكان.سائح أجنبي يقول بأنهم وصفوا له هنا أرضا توجد عليها رمال كثيفة وأنه جاء إليها من أرضه طلبا للشفاء من أمراض تكونت بفعل غياب الشمس وكثافة الغيوم وتهاطل الأمطار والثلوج..سألته في استغراب ألا يمتلكون أكبر المستشفيات وأحدث التقنيات الطبية؟..لم يجبني وظل يبحث ويسأل كل من يصادفهم دون أن يدله أحد على مراده..في الحقيقة هو لم يكن يلتقي أحدا،وحدي كنت في تلك القفار..لكنه لفرط حاجته كان يتوهم أنه يلتقي أناسا.

في آخر لحظة جاء إلي فدللته على اتجاه يؤدي نحو الشمال.

بردا وسلاما

تائها كان يمشي.. تراءى له في الأفق ضوء فاستبشر..ما قال لأهله امكثوا فقد كان وحده..سار في طريقه نحو الأفق عساه يعثر على قبس يهديه المسار في هذا القفار..وجد الضوء نارا محرقة فما كان منه إلا أن ألقى بنفسه فيها عساها تكون بردا وسلاما.

مأساة كاتب مبتدئ

فجأة، ومن فضاء مظلم وحياة تعيسة..انبرى صوت يهز أسماع الموتى و يشق الآفاق..

سيدي،قال،تعلمون أنا قد تصنعنا الصمت حتى كاد ينسينا الكلام.

تعلمون أننا تصنعنا عدم الاكتراث حتى ظننتم أننا موتى وأنكم الأحياء.

ثم قال...وأعاد القول ثانية وقال..

حينئذ فقط تململ ذلك الجالس على كرسي وثير داخل قبة في بعيد البعيد وقال:

"دير ما دارو قرانك ولا سكت"

قال القارئ غير الناقد:"وماذا فعل أقرانه"

قال الكاتب المبتدئ:"هاجروا في صمت"

قال الناقد:"تحتاج الكثير لصقل موهبتك..سردك يحتاج للتكثيف والتورية..كتاباتك تقريرية ومباشرة..يجب أن تستعين بالتلميح لتشرك القارئ في الإبداع"

قال الكاتب المبتدئ الذي أصبح في عين نفسه مشهورا:"كل شيء يوجد في قمة النخلة..وعلى قارئي أن يعيش مأساة زحف الرمال.

وعلى العموم قد أفعل..قد أفعل."

الفيافي

التيه

كان كلما عاد إلى بيته مساء يدير مفتاح المذياع لينبعث صوت يخترق أذنه ويسري نحو قلبه المفعوم بالوله تجاه أرض يحفظ لها ابتسامة في قلبه كلما عبرت ذكراها خاطره..ابتسامة أقرب إلى عناق صوفي مع ذكريات قريبة إلى القلب،بعيدة في جغرافيا العالم المهووس بالبناء على أنقاض الضعفاء والمحرومين..ابتسامة سخرية من هذا المصير المجهول الذي كان في يوم من الأيام أملا بحياة بعيدة عن ألوان الفقر والكساد.

أدار المفتاح فإذا بصوت رخيم ينبعث حافرا في أعماقه شرخا عظيما:"..في وطننا لا أحد يجب أن يكون هشيما أو يتيما،فالوطن أب والأرض أم.."

منذ أكثر من عشر سنوات غادر أرضه وقاسى أنواع الغربة والضياع،تائها في عوالم لم تشهد إلا على معاناته وانهزامه في منافي الوطن والعالم..لقد ارتكن في ما يشبه الاستسلام إلى الاستقرار في هذه الأرض البعيدة..يجد في بناء حضارة الآخرين ويكد من أجل كسب لقمة العيش التي تحفظ له البقاء وإن كان بقاء للألم،لكن الطموح قائم وإن كان يائسا..لم يكن استسلامه إلا جبرا،فقد ظل مسكونا بهاجس العودة إلى أرضه ومعانقة الأهل والأصدقاء.

فيما يشبه النسيان تلاشى قوله الذي كان يتغنى به قبل وداع أمه:"إن التيه في الصقيع على قمم الجبال الثلجية أقل وطأة وشدة من التيه في الحر وعلى قمم الكثبان الرملية الصحراوية ومساحات الفقر والمذلة."

"أصبح الصقيع لاسعا وقمم الجبال القاسية لم تكن أبدا أما رؤوما..فالغريب من فوق القمم يبدو صغيرا وضعيفا..ولكن لا أحد يتميز في هذا الخضم الجارف ما دامت الحياة تنتهي دائما بالموت" كلام يحاول أن يتناسى به الألم في غرفة لا يميزها غير مذياع- هو كل ما زالت تنبعث منه رائحة الوطن- لا زال الصوت منبعثا منه:"..الكل يرغب بالانتشاء بظل الكرامة الوارف في أرضه وتحت سمائها،من المستقر الثابت القنوع إلى المهاجر الطموح والرافض..."

خريف الراوي..ربيع الحكاية.

من صلب التاريخ تنبثق الحكاية..تتسربل نحو آذان العارفين فينقحون ويصوبون..ناسين أو متناسين بأن الحكاية عاهرة جميلة تضاجع النذل والحقير والشريف الغني والفقير.

هكذا عرفت الحكاية حين تجلت لي في أبهى حللها محاولة إغرائي بمعانقة رغبتها.. وهكذا هي الحكاية بمشيئة الله والناس أجمعين..ذراعاها مفتوحتان أمام الراغبين..بل واللعبة تنطلي على النافرين.

دخلت القصر في أحد الأيام حاملا إليها نبأ سيدي ومولاي الراوي،يخبرها بأنه في رحلة صيد إلى بلاد بعيدة قد تستغرق أياما وشهورا وأنه لن يعود في هذا المساء إلى خدرها حتى لا تنتظره ليلا أو تقلق على تأخره.

لم تكن عادة سيدي أن يخبرها إلى أين يذهب ولا متى..ولم يكن يأخذها معه في رحلاته..لأن سيدي كانت له زوجات كثيرات فأينما حل أو ارتحل وجد واحدة في انتظاره لابسة أحلى ثيابها ومعطرة بأحلى عطورها وكأنها كانت على موعد معه أو أنه لا يفارقها السنة كلها.

طلبت من إحدى وصيفاتها أن تستأذنها في دخولي عليها،وجاءت إلي بعد وقت طويل تخبرني بأن مولاتي مستعدة لاستقبالي.

طرقت الباب وجاءني صوت من داخل الغرفة مؤذنا لي بالدخول..لم أكد أتوسط الغرفة حتى ظننتني في الجنة الموعودة.. عبق المكان يزكم الأنف ويحمل نحو القلب نشوة بالارتقاء نحو معانقة السماء..تهت بين الألوان والزخارف التي تشكل حائط الجنة-الغرفة-ولم يوقظني إلا صوت أنثوي ظننته لوهلة صوت حورية من حوريات الجنة..لولا أن رهبة سرت في قلبي وأنا أرى سيدتي الحكاية تتوجه نحوي.

حييتها بما يقتضيه المقام، وأردت أن أنطلق في سرد الخبر لولا أن سيدتي وضعت يدها فوق فمي:

-أنت لم تأت من أجل تبليغي رسالة من مولاك..فلا تتحدث في هذا. اللحظة لحظتك ولا أريد أن أسمع شيئا عن مولاك.. أريد أن أسمع صوتك أنت لا صوت آخر يتردد عبرك، قالت وأردفت:ومتى كان مولاك يخبرني في رحلة أو سفر؟؟ إنها مشيئتي التي سيرتك نحوي..لقد أردت أن تأتي إلي بعدما أشرت إليك دون أن تفهمني..لقد انتظرتك ردحا من الزمن وها أنت اليوم تلبي طلبي وإن كان متأخرا، لكنك أتيت وهذا ما يهمني.

أردت أن أتحدث لكن قوة ما أخرست لساني لتنطلق أذني في سماع كلام لا أدري إن كان معسولا أم أنه عسل فيه السم الزعاف..

لست أدري فيما كان إعراضك سابقا، هل خوفا من مولاك أم استحياء من مولاتك؟؟..أم أنك لم تكن قط تلقي بالا لإشاراتي ؟؟..حين جربت كل السبل قفزت إلى مخيلتك علني أبعث فيك الشعور باستطاعتك التخيل مثل من تدعوهم أسيادك..لكن ويا أسفا لبديهتي..لقد كنت جبانا أكثر من اللازم..أما الآن وقد نجحت مشيئتي فإنني أضع بين قلبك ذاتي فلتعانق الحكاية ودع عنك لفظ السيدة.

بهرتني الكلمات، ولم أستطع أن أقاوم رغبتها التي أصبحت رغبتي، فاستسلمت للقوة الجموح..تاركا في يد القلب عقالي.. استحضرت في لحظة وجيزة يوسف الذي أعرض عن امرأة العزيز..لكنني وجدت هذه أكثر لذة وجمالا..في غمرة الانتشاء نسيت الراوي ونزعت عنه من تلك اللحظة لقب السيادة، فالتاج الذي كان فوق رأسه انتقل إلى يدي، والماسة التي كانت بين يديه هي الآن تحترق أمام شمسي.

قد لا أكون جديرا بثقة الراوي..فخنت الأمانة فيما استأمنني عليه. هذا ما تبادر إلى ذهني في البداية، لولا أن الحكاية بعد طول عناق أكدت لي أن الراوي نفسه لم يكن سيدا على أحد مثلما لم يكن الذي قبله سيدا عليه وهو يتوهم ذلك لحظة من الزمن..قالت لي بأن الراوي لن يعود أبدا إلى حضنها،لأنه قد قضى مأربه منها وهو الآن يرتمي بين أحضان حكاية أخرى في مكان آخر من أرض السرد الخصبة.

فهمت منها أنني اكتسبت لقب الراوي من تلك اللحظة التي غمرتني فيها بعطرها وأنني أستطيع أن أسافر حيث أشاء ووقتما أشاء..وكل العبيد الآن تحت إمرتي لكنها ستنجذب لا محالة إلى واحد منهم..لكي أبعثه لها في سفري الأخير.

الفيافي

كثبان رملية تغزو المكان، بدأت تزحف نحو حقول هجرها أهلها ..ذهبت بخضرة شجيرات صغيرة كانت تزين الأرض اليتيمة، والهجرة..

الهجرة في أوجها نحو المدينة.

والدي يقول بأن المكان كان واحة خضراء تمتع العين وتأخذ اللب..لو سكرة الموت أتتك وأنت بين الأشجاروالأزهار ما استطاعت أخذك..غير أن الحقيقة التي واجهتني منذ بدأت أعقل الصور والأماكن هي أن الواحة في مخيلة والدي لا تعدو سوى صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا نبات.

وحدها أشجار النخيل ظلت محتفظة بحبها لنا..ربما لأنها سامقة ولا ترى في سموقها مبرر استسلامها لغزو الرمل الزاحف دون إشفاق؟أو ربما لأنها لا تستطيع أن تخذلنا مادمنا نوفر لها كمية الماء القليلة التي تكفيها من حين لأخر؟

والدي لايريد أن ينحني للواقع الذي بات يفرض نفسه بقوة فقد أعلن للجميع إصراره على البقاء..سموقه وأنفته لم تتأثرا باستسلام كل أهل القرية للحل الذي لا ثاني له..آخر من رحل عن القرية كان عمي، بعد جهد بليغ في محاولة إقناع الوالد بضرورة الهجرة..تعنت الوالد ورفضه القاطع لفكرة الهجرة لم يثنيا عمي عما اعتزم فعله.

والدي يقول بأن كل هؤلاء الذين هاجروا لابد وأن يعودوا صاغرين راضين بما توفره لهم أرضهم من عيش-يقول والدي- كريم..المدينة غارقة في أوحالها ولا تستطيع أن تستوعب كل هؤلاء الوافدين الذين لن يزيدوها إلا أوحالا.

والدتي التي كان يستشيرها في كل أموره ويأتمر بأمرها تعلم عناده عندما يصر على أمر ما، لأنه يرى فيه غاية الصواب..بالرغم من ذلك كانت تقول له:"ولما لا نجرب حظنا نحن أيضا وإذا لم نفلح في العيش هناك فالأرض لن تهاجر سنجدها كما تركناها؟"..كانت تعلم مسبقا بأن كلماتها لن تغير شيئا من تعنت الوالد وصلابته..لكنها تبوح لتخفف عن نفسها.

لو كنت كبيرا لحققت لوالدتي رغبتها ولوضعنا الوالد أمام الواقع الذي لا يستطيع أن يحيد عنه..لكنها والدتي لا تستطيع أن تدبر الأمر بنفسها وقد جبلت على أعمال البيت لها ومادونه لزوجها والمدينة كما يقولون إذا لم تكن أسدا بين الأسود لا تستطيع أن تحصل لقمة عيشك.

في المدينة كان رجال القرية يعملون في أي شيء غير الفلاحة التي وجدوا عليها أجدادهم..النساء أيضا خرجن إلى العمل..

وبيوت قصديرية كانت هي المأوى الليلي لهم..معظم أبنائهم يعملون والبعض الأخر منهم يظلون يتسكعون في الشوارع ينتشلون ما تصله أيديهم ويتعاطون لمخدرات تذهب بعقولهم..قال عمي في إحدى زياراته لنا وأضاف بأن مصاريف العيش

متوفرة لكن البيوت القصديرية مستنقع في الشتاء وفران في الصيف ولا بديل لهم..يبدو على عمي الأسف لكن لا يبدو

أنه يفكر بالعودة..

القيم المثلى

جن الليل واستسلم كل من في البيت إلى سلطان النوم . . .انطفأت الأضواء إلا مصباحا في غرفة أخالها غرفتي. . .
لست أدري إن كنت مستيقظا حينما راودتني أفكار غريبة وأسئلة كالفطر تتوالد مع كل نقلة حركة الأقدام . . .
حاولت . . .
حاولت أن أجيب على بعضها إلا أنني وجدت نفسي قد راكمت إلى جانبها أسئلة أخرى. . . .هي قدرلعنة أن أركض خلف مايدمرني .
وهي لعنة جميلة بها أعلو. . .
انسللت من البيت لائذا بالجبل علني أجد في ظلمته وسكونه ما ينير طريق عقلي ويطفئ جذوة الأسئلة المستعرة نارها من هاويات الأعماق.
كنت . . .
كنت وحدي مع الليل هائما بين سفوح جبل كيسان لا أعرف لي هاديا في طريقي غير ذاكرتي التي تحفظ مناقب هذه القرية بسفوحها وجبالها. .
وأنا غارق في تفكيري إذ بدا لي شبحان من بعيد. .أحسست بفرائصي ترتعد. .تلاشت كل أقوالي التي كنت أفتخر بها بين أترابي. .لم يعد الخوف يخاف مني. .ولا عاد باستطاعتي إلحاق الهزيمة بجحافل العفاريت التي يحكي لنا أجدادنا عن ظهورها.
وقفت في مكاني وبدأت أنظر إلى الشبحين اللذين لا أتبينهما من شدة الظلمة،وبعد قليل تناهى إلى سمعي حوار جرى بينهما . الشبح الأول :
ـ ألا تريد أن تقتنع بأن زمانك قد ولى منذ هزمتك واستسلمت كل العقول إلى مشيئتي؟ الشبح الثاني:
ـ أنت الذي لا تريد أن تفهم بأن الحرب سجال،يوم لك ويوم عليك. .الحرب لا تزال قائمة بيننا مادامت الحياة قائمة . الشبح الأول :
ـ مهما حاولت فلن تستطيع ترجيح الكفة لصالحك،هل تظن بأن البشرية غبية إلى درجة التخلي عن ما سقته إليهم من حضارة والانجرار وراء قيمك التي أكل الدهر عليها وشرب. الشبح الثاني:

ـ لقد ظهر زيف الحضارة التي تدعيها وساد الانحلال والتفسخ،إن البشرية في حاجة إلى من يرد لها إحساسها بإنسانيتها وليس إلى تقدم مزعوم لم تربح فيه غير فقدان الحب والعاطفة والقيم المثلى . الشبح الأول : العاطفة..القيم المثلى.. تلك ألفاظ لم يعد لها وجود إلا في القواميس البالية... في تلك الأثناء سمع صوت انفجارغضب زلزل المكان ورددت أصداءه الجبال : "لا أنت ولا هو لكما السيطرة على البشرية وما أنتما إلا مظهرا من مظاهر قوتي وعظمتي وقيمي

زفرات الفيافي

بدوت مدفوعا بلا وعي ظاهر أو ربما بوعي متكاسل..أمسكت القلم بين أناملي وطال تحديقي في الأوراق البيضاء المنبسطة أمامي..أظن أنها عكست فراغها على أفكاري لكنني لا أجزم بأنني في تمام يقظتي..قلت لنفسي "أبدأ بالعنوان أولا"،غير أن صوتا نقديا نط إلي من عمق ما قرأت آنفا "آخر ما يفكر فيه الكاتب هو أول ما يبدأ به القارئ "العنوان"..قهقه صوت آخر ملأ صدغيه "هل تصدق فعلا أنك كاتب؟"

أحسست بدوار ينتابني..الرغبة في الكتابة تغتالني وسلاح الجريمة في يدي..ترددت "الجريمة" في دواخلي وكأن صدى من

تاريخ قديم يحاول أن يستفز مخيلتي..بدا اللفظ مغريا إلى حد ما ومقرفا ومقززا بشكل أكبر..مخالفة العرف عند أقوام يعني حب الشهرة والكلام عند قوم صامتين يحيل على جريمة لا تعادلها أخرى.

بدا الأمر واضحا نسبيا..أعتقد أنني في هذا اللاوعي سأقدم على جريمة نكراء..لكنني أمام العدالة الإنسانية بين هؤلاء القوم الصامتين لن ترحم حالتي..سأدان على أنني في كامل وعيي..بل هم يعتقدون بأن هذه الجريمة لا يقدم عليها إلا شخص يتمتع بوعي تام.

أمام هذا التدفق الجارف لهذه الرغبة الكاسرة لم أجد بدا من التواصل معكم مباشرة-معشر القراء الكرام-ربما إذعانا مني لسلطة الناقد..لكنني سأحاول أن أشرككم في السرد نكاية بالناقد العزيز..فأنا أعلم أنكم ستعجزون مثلي عن فهم ما يصير إليه أمري الآن..وربما قد تنجحون فلا يكون في المعادلة خاسر..فإن بدا ظاهرا أنني سأخسر الرهان فلا تنسوا أنني سأكتسب العنوان..أظن أنكم تتبعتم منذ البداية ما الذي أوصلني إلى هذه الحالة من الشرود بين السطور والإحساس بالدوار..لا شك تعرفون أنني لا أبحث إلا عن عنوان لهذه القصص المتناثرة على صفحات هذه الصحراء القاحلة.

يبدو أنني عثرت على طريق للخلاص..انتبهوا معي..ماذا قلت قبل قليل؟ هل سمعتموني؟..أظن أنني تلفظت بلفظ "الصحراء القاحلة"..لا،لا ليس الأمر كذلك..لن أجعلها عنواني..فقط تذكرت أمرا مهما حدث لي قبل سنوات قليلة:

كان لوالدي عدد كبير من الأغنام وكنت أذهب بها لترعى في الجبال المحيطة بنا والأراضي المنبسطة بجانب الوادي حيث تنبت الحشائش بعد تساقط الأمطار..وفي السنوات الأخيرة أمسكت السماء وبدأت الرمال تكتسح تلك الحشائش التي ترعى فيها أغنامنا..في أيام متتابعة حدثت أمور غريبة..حدث بعضها معي أنا وأخرى مع بعض البدو الرحل الذين يسكنون الجبال.

انتشر خبر في القرية التي أسكن بها مفاده أن ثلاثة أولاد للبدو الرحل قد ذهبوا لرعي الأغنام في الجبال وكانوا يجلسون بقرب عين ينبع فيها الماء من تحت الجبل-تلك العين أعرفها وكل الرعاة يحبذون الجلوس بجانبها حيث نترك الأغنام ترعى بالقرب منا-وكان هؤلاء الأولاد يلقون ببعض حجيرات صغيرات إلى الماء-وكذلك كنت أفعل،يستهويني وقع الحجر في الماء-..الناس يقولون بأن هؤلاء الأولاد قد خرجت لهم مخلوقات غريبة من وسط العين كانت على شاكلة عرائس النهر.

الحقيقة أنني لم أستطع أن أكذب أو أصدق هذا الخبر بعدما علمت بأن الأولاد الثلاثة أصيبوا بحالة إغماء استفاق منها واحد منهم مجنونا..وأشك في أنهم رأوا ما ادعوه حقيقة أو في حلم..

صادف أنه في تلك الأيام التي يدعون فيها هذا الحدث لم أكن أذهب إلى الجبل بل كنت أرعى بجانب النهر..لكن بعد انتشار الخبر لم أعد أستطيع الرعي بالجبل .

لم أكتشف حيلة الرحل إلا بعد سنوات و أعتقد أنني اكتشفتها الآن فقط.. فبعدما قلت الحشائش في الجبل وقرب النهر بسبب انحباس الأمطار،تفتقت بديهة هؤلاء على خلق هذه الرواية لكي لا يزاحمهم أحد في الرعي بالجبل.

أما الأمور التي حدثت لي أنا فهي أنني في تلك الأيام التي كنت أرعى فيها قرب النهر وكان قد جف من المياه كانت بعض كثبان الرمال تزحف على المكان..وكنت في الأيام الأولى أسمع أصواتا بعيدة لا تكاد تصل إلى مسامعي..لم أخبر أحدا عما كان يقع لأنني لم أكن أهتم بها اهتماما بالغا، إلى أن توالت بعض الحوادث الأكثر غرابة..ففي الأيام الموالية كانت تنبعث من المكان أصوات أشبه بزفرات إنسان محموم..في اليوم الأول انبعثت زفرة دوت لها أذني واهتز قلبي وارتعدت فرائصي..لكن سرعان ما عاد إلي هدوئي وعندما أردت أن أعود إلى البيت وجدت نعجة قد ماتت،فتركتها هناك وذهبت اعتقادا مني بأنها ماتت كما تموت بعض البهائم في مواسم متفرقة..غير أن الذي زاد الأمر غرابة هي أنني سمعت في اليوم الموالي نفس الزفرة وماتت كذلك نعجة وخروف من الخراف السمان في القطيع.

عندما تكرر الأمر للمرة الثالثة قررت أن أخبر والدي بأمر الزفرات فلعله يكتشف علاقة بينها وبين موت جزء من القطيع.

عندما أخبرت والدي استغرب الأمر وانصرف في تفكير عميق..ثم تنهد تنهيدة طويلة وقال:"إنها زفرات الفيافي.. تلك الزفرات يا بني "إنها زفرات الفيافي".

مواليد قرية "إغرغر"
بزاكورة سنة 1990
متخصص في علم الاجتماع
فاعل جمعوي
مدون إلكتروني

الحقيقة أنني لم أستطع أن أكذب أو أصدق هذا الخبر بعدما علمت بأن الأولاد الثلاثة أصيبوا بحالة إغماء استفاق منها واحد منهم مجنونا..وأشك في أنهم رأوا ما ادعوه حقيقة أو في حلم.. صادف أنه في تلك الأيام التي يدعون فيها هذا الحدث لم أكن أذهب إلى الجبل بل كنت أرعى بجانب النهر..لكن بعد انتشار الخبر لم أعد أستطيع الرعي بالجبل .